عبد الحميد السماوي

بقلم الاستاذ حمود الساعدي

— ١ —

تمهيد

سمعت بالشيخ عبد الحميد السماوي يوم وعيت الشعر العربي وسمعت شعره مدوياً في نوادي النجف دوي موسيقى الحرب في أسماع الجيش المهاجم ، وقد كان اسمه فيها مقروناً بالاعجاب والاكبار، لايذكر الشعر الحديث الا ويقرن به اسم السماوي ولا تسمع بالسماوي الا وتأخذك هزة الاعجاب بالادب الجديد هكذا كان شاعرنا السماوي منذ خمسة عشر عاما في النجف وانطوى ذكر السماوي او بالاحرى درست معاهد الأدب القديمة ونسيت مساجلات الشعر في حلبات الافراح والتآبين وتلون الأدب النجفي بلون التكتل الحزبي فظهرت جمعية الرابطة وتأسست جمعية المنتدى وأخذت المجلات الأسبوعية والشهرية تنشر آثار ادباء النجف وقصائد شعرائها المبرزين ولكن الشيخ حميد السماوي لم يكن له عنوان في هذه (الاعلانات) الأدبية ، فلاهو عضو في جمعية ولا هو مسامم في مجلة ، وكادت النجف ان تنسى شاعرها المجدد وتدرج ذكرياته في [فايل] النسيان لولا ظهور [الأدب الجديد] لمؤلفه الاستاذ الشاعر السيد محمد جمال الهاشمي الذي فاجأهذا العالم الجديد بلون رائع من الشعر للعلامة السماوي فيتألق نجمه من جديد وتغمر انواره الباهرة تلك الأضواء الضعيفة التي كانت تخفق في فضاء الشعر النجفي خفوق السهى في السماء المتلألأة بالنجوم واذا بالنوادي الادبية تعود — والعود احمد — الى التغني بشعر السماوي وتشيد بذكره من جديد ولم يكتف الهاشمي بما نشره للسماوي في كتابه بل راح يوالي نشر ماتجمع عنده على صفحات المجلات العربية فصارت هذه القصائد انشودة الشباب المثقف ولابدع لانها تمثل كما يحس به الانسان في هذه الحياة الصاخبة ، ويشعر به من اعماق قلبه ، واذ ذاك كثر التساؤل عن شاعر الجيل، شاعر العقل والقلب والروح فاندفعت الى الكتابة عن السماوي الشاعر ، اما السماوي العالم الذي هو نفسه ، فليس لي ان أغور في بحر علمه الزاخر .

— ٢ —

من السماوي الشاعر

هو العلامة الجليل الشيخ حميد ابن العلامة المرحوم الشيخ احمد من آل عبد الرسول واسرته هم المراجع الدينية في السماوة منذ امد بعيد .

ولدسنة ١٣١٥هـ في السماوة ونشأ نشأة تلائم مقام اسرته في الفضل والمجد وتثقف بجامعة النجف الدينية حتى نال مركزاً سامياً في الفضل والتقوى ومن ثم انتقل الى السماوة ليؤدي واجبه الديني فساعدته ملكاته النفسانية على اجتذاب قلوب الناس وامتلاك ارواحهم بالأخلاق الاسلامية السامية والثقافة الدينية العالية حتى أصبح القائد الروحي الاول في تلك المنطقة وخلاصة القول: للسماوي في منطقة السماوة المقام الاول في الزعامة الروحية والقيادة الدينية ، ترجع اليه المشاكل وهو يحلها ببراعة واتقان ، وتؤمه الوفود وهو يلاقيها برحابة صدر وحسن أخلاق ؛

وان كان هناك شيء نأخذه على العلامة السماوي ذلك انصرافه عن عالم الشعر والأدب والنشر والتأليف الى دنيا الرياسة الدينية ولو ازمها التي تستغرق كل دقائق يومه الامر الذي جعل نتاجه الأدبي يكاد يكون معدوماً لولا وثباته الروحية التي تضطره بين كل مدة ومدة الى ان يسجل خواطره في وريقات متبعثرة هنا وهناك .

اسمعونا برغمنا فصبرنا ثم ثرنا غيظاً على الآذان
جلبوا للقريض ثوباً من الغر ب ولم يجلبوا سوى الاكفان
ثم قالوا مجددون فاهلا بصناديد اخريات الزمان

لاتثوروا على تراث امرىء القيس وصونوا ديباجة الذبياني .
واتركوا هذه المعاول بالله فاني اخشى على البنيان
واحفظوا اللفظ والاساليب والذوق وهاتوا ماشئتم من معان

« رقيب »

— ٣ —

شعر السماوي

يتكون شعر السماوي من مجموعة اوحتها له المناسبات الطارئة فكان ينظمها ليلقيها في حفلة تأبين او مجلس تهنئة اويصدر بها رسالة او يجيب على عاطفة. هذه هي مجموعة قصائد السماوي، وعلى هذا نستطيع ان نقول بان اكثر شعر السماوي من وحي المجاملات العرفية، وفي هذه المجموعة من القصائد ندرس نبوغه ونلمس عبقريته ، فهو يتوخى في شعره الاتيان بالجديد الرائع وينصرف في مرائيه وتهانيه عن الأساليب الدارجة عند شعراء المناسبات فهو يسير في طريق يشقه بنفسه لنفسه ويطير في جو يخلقه له خياله الواسع ولهذا السبب اصبح شعر السماوي ممتازاً بين آثار اقرانه من معاصريه .

كانت مجالس الهناء والرثاء في النجف مدارس للشعر العربي يلتمس منها التلميذ دروسه في الشعر كما يجد فيها الاستاذ بغيته في الادب والفن ، فكنت ترى تلك المجالس غاصة بالعلماء والأدباء عاجة بالاستحسان والانتقاد ؛ وقد كان لتلحين القارئ في الالقاء وتجويده في الانشاد اثر المغني عندما يفاجئ الندمان بلحن جديد فكنت ترى للاستحسان والاستعادة والقيام والقعود موجات ترد فيها موجات، وكلما كانت القصيدة ابلغ والقارئ اعذب صوتا كانت تزداد تلك الموجات بحيث قد تستغرق قراءة القصيدة الواحدة اربع او خمسة ساعات يعيد بها المنشد ابياتها تلبية لطلبات السامعين . وفي هذه الاعادة ، وبتلك الاستعادة كانت تصقل العواطف وترهف الاحاسيس فكنت لا تدخل محفلا من هذه المحافل الا وتخرج عنه بثروة وافرة من الشوق الى الادب وبمقدار واف من اللغة والفن ولقد كانت لقصائد شاعرنا السماوي رنة استحسان في تلك المجالس تبقى مدوية مدة ليست بالقصيرة يتناشد بها الأدباء والمتأدبون وتدرج في طيات الزمان الا انها تبقى منها عناوين كبيرة لم تؤثر عليها حوادث الدهر او تمحوها كوارث الزمان فقصيدته التي القاها منذ ثمانية عشر عاماً في رثاء ابن عمه العلامة الشيخ موسى والتي يستهلها بقوله :

وجمت فلا نطق ولا ايماء وخبت فلا قدح ولا إيراء

لم تزل بعض ابياتها ترددها المجالس الأدبية حتى اليوم والتي منها :

أمقرط بالعتب نافذة القضا خفف عليك فانها خرساء
لايصلح الجسن القبيح وهل ترى كف الوصيف تزينه الحناء

ومنها قوله :

لاتنصتن بجنب كل أراكة ما كل غصن فوقه ورقاء
واذا استفزك ناعب فلربما طرب الأصم وغنت الخرساء

وانت ياقارئي العزيز اذا امعنت نظرك في هذه الابيات ووصلت الى قوة السبك ولطف الاسلوب ودقة المعنى ورقة (البيان) عذرت مجالس الأدب في النجف على احتفاظها بامثال هذه الطرائف الأدبية .

ولشاعرنا السماوي ديوان شعر اجتمع اكثره كما ذكرنا من وحي المناسبات ، نعرض عليك من تلك الصور لتلمس الشاعرية الممتازة فيها، الشاعر بلبل يعيش في قفص من حديد فهو يتمتع بصوته الساحر وحركاته الفاتنه ، فتراه يوماً وقد تأثر بحياة هذا الطائر الجميل وتغريده في الحبس بدل البكاء وقنوعه بفضاء القفص الضيق عن الأجواء الواسعة الشاسعة فاسمعه كيف يعاتبه ويخاطبه بقوله :

يابلبل القفص المطل وشاعر الروض الأغن
ماكان ظني ان اراك مغرداً ما كان ظني
فالحزن اعمق نغمة من نغمة الوتر المرن
لحن النفوس الشاعرات اذا تجيش بغير لحن
واذا علا صوت النعي بمحفل سكت الغنى

فاذا ما انتهى من عتابه معه أصبح يقيس حياته على حياته ويقابل شعوره بشعوره فيخاطبه حينئذ بقوله :

يابن الأراكة قد قتلت مسرتي وأثرت حزني
انا لست من حمم الجحيم ولست من جنات عدن
او لم نكن ابناء لحن واحد ولدات فن
نصغي الى وحي الجمال ونشرئب لكل حسن
انت الأسير بلا فدى وانا الطليق بغير من
تشدو وانت بمحبس وانا انوح بمطمأن
اتصاغرت للسجن نفسك فهي من طرب تغني
وتعاظمت نفسي علي فخلت هذا الكون سجني

وتثيره العاطفة الدينية فتحفزه لأن ينظم في عيد الغدير ويحاول الشاعر في قصيدتيه اللتين نظمها بهذه المناسبة ان يأتي بالجديد الرائع فيجمع مابين رقة السبك ومتانة الأسلوب وغور المعنى وانتخاب اللفظ فيقول :

بلبل الوحي في ضفاف الغدير صادح باسم موكب التأمير
يتحدى الأجيال مهما ترامت في مجاهيل عالم مستور
هيكل من تعطف وحنان ماثل فوق هيكل من شعور

كم في وصف النبي بالعطف والحنان تجاه العالم الاسلامي الذي اسسه بلطفه وعطفه وفي وصف امير المؤمنين « ع » بالشعور وهو النعت الذي يختص به ابو الحسن ، وكم في هذا التقارب من الحسن اللفظي والمعنوي مالا يخفى على الأديب النابه . ثم يستمر ويقول :

جوهري الوجود لم تتفاعل فيه شتى عوامل التغيير
عدسات التصوير تجلوه لولم تنعكس فيه جامة التصوير
يقطع النص في علي بنص ويشد الدستور بالدستور
ما تلاشى صوت الحقيقة حتى ارتعش الحق في فم الجمهور

كم في هذا الارتعاش وذلك التلاشي من الروعة والبداعة الفنية ، ثم يستمر .

همسات تذوب في همسات وسطور تنحل فوق سطور .

ويختم القصيدة بالاعتذار عن نفسه لدى صاحب العيد فيقول :

ياأخا المصطفى تعاليت شأناً عن مقام التمثيل والتنظير
(انت في منتهى الظهور خفي) ولدى منتهى الخفا في ظهور

وفي قصيدته الثانية تلمس الحماس الديني الذي اهاج عواطف هذا الشاعر الحساس فاسمعه كيف يقول :

ترامت وجنب الأفق ماانفك نائيا
محاضير تطوي عالماً مترامياً
إذاماأقامت شاخصاً في طريقها اليك تخطته لتنصب ثانيا
تخال جبين الافق اسفع قاتماً وتحسب وجه الارض أجرد عاريا
فما ابصرت من جانب الطور جذوة
ولا سمعت من عالم القدس حاديا

بهذا العروج النفسي يستهل قصيدته ويحاول ان يجتاز العقبات ليصل الى طور الحقيقة حيث يبصر النار المقدسة ويسمع الايحاء القدسي ويستمر في قصيدته ويقول :

اعلل نفسي ساعة بعد ساعة وهل تذهب الساعات الاثوانيا
اذا انا عرفت الحوادث من انا فما هي الا ان تثوب كما هيا
اكر اذا ما الدهر كرت خطوبه فما زلت معدياً علي وعاديا
واشدو بليلاها فليلاي لم تجد لها بعد اخفاقي طبيباً مداويا
كفى بك جهلا ان تراني شاعراً
وبي عطلا ان كنت بالشعر حاليا
ولكنها آهات نفس تفاعلت جواهرها حتى استحالت قوافيا

ويستمر الى ان يقول :

بعدت عن المرمى رويدك فائتد الى اين تجتاح الربى والفيافيا
اثر رهج النادي اذا اكتض جنبه
وان وجم الشادي فكن أنت شاديا
فما هو الا ان يعج ببدائها بذكرى (علي) او يعج مراثيا
فهذا علي فوق كرسي مجده يرتل صوت الحمد سبعاً مثانيا
تغشاه من عرش المهيمن هيكل اعاد لنا السبع الطباق ثمانيا

هكذا يصل الى الموضوع فتشاهد علياً وقد تغشاه من عرش المهيمن هيكل نوري إلهي اعاد السبع الطباق ثمانية بقدسه وسمو جلاله ، ويختم القصيدة وهو يخاطب امير المؤمنين (ع) مشيراً الى عجزه في اعطاء الموضوع حقه .

ستبقى مدى الايام لغزاً مؤبداً وان حلت الغازها والاحاجيا

وللشاعر قصيدة يتيمة يرثي بها ابن عمه العلامة الشيخ محمد المتوفى ١٣٦٤ هج وهي من عيون قصائده ولقد ابدع فيها غاية الابداع كما انها تمتاز باشتمالها على ترجمة الشاعر ترجمة نفسيه دقيقة تمثله تمثيلا قوياً صادقاً في حالتيه الهادئه والهائجه يستهلها بقوله :

لمن الموا كب في ضفاف الوادي نشرت مطارفها على الآباد
من عالم العدم استمدت فيضها حتى تخطت عالم الايجاد
قيثارة الشادي الطروب ترنمي بعد الركود فما وجوم الشادي
ان راعني وخز الخطوب فانما بالشوك تفرش روضة الأوراد
فلئن تزاحم حكمها ومشيئتي فلقد تكافأ نصلها وفؤادي
ماأعوز الجرح الضماد وانما اعددت من قبل الجروح ضمادي
مالي وللأدب الرفيع فقد نبا من بعده قلمي وجف مدادي
رام المحال فسف خلف مراده فسئمته وسفقت خلف مرادي

ثم يتخلص الى الرثاء بقوله :

فبهت بعد سباتها ابنة خاطري ... لتقيم مأتمها على ابن الضاد
فلأنشرنك بعد موتك مصلحاً ... حياً يرقم لوحة الارشاد
ولا رفعنك حيث كنت تميمة ... لتعيذ من شطط الخطوب بلادي

ثم يحاول تسلية أقاربه وعشيرته بقوله :

إيه بني أم الفضيلة نبنيي ... عن وجدك الغادي عداك الغادي
غني بمجد بني ابيك وغردي ... بمآثر الآباء والاجداد
هل فات دور البذر حتى أننا ... رحنا نعقبه بدور حصاد

ويشرع بعد هذا في ترجمة حياته ويحاول ان يفهم قومه خدماته لهم في الاسرار والاجهار فيستهل الحديث بدعوته الى الاتحاد فيقول :

وعداك سر الاتحاد لم يكن ... بالذر ينهض شامخ الاطواد
ايقوم كل فتى بقائم سيفه ... ونروح محتفظين بالاغماد
فاطو حديثاً لايزال مخرقاً ... في معرض الأرسال والاسناد
فلقد يعود الماء بعد صفائه ... مترنقاً من كثرة الوراد
والنار ان يك هيناً ايقادها ... لكن هلم الخطب في الاخماد

ويسترسل في حماسته ويقول :

ياسرني ان سدتكم بل ساءني ... ان لم تكونوا أنتم اسيادي
سارت شعوب قبلنا وتمصرت ... أمم ونحن بسبسب ووهاد
صارحت قومي عن حقيقة شاعر ... ختمت على فمه يد الالحاد
ان هزم هذا الشعور فحسبهم ... اولا فكم من نفخة برماد
انا لا احاول ان اقوم معبراً ... للقوم عن جلدي وطول جهادي
أأهب منفرداً لجمع شتاتها ... وتهب مجمعة على افرادي
سيان في الارقال الا اننا ... شتان في الأتهام والأنجاد
هامت باذلالي وهمت بعزها ... (فانا بواد والعذول بواد)
فسيعلم التأريخ عني غير ما ... يتلوه لي من آية احفادي

ثم يختمها بقوله :

شيدت من نفسي لنفسي معبداً ... واقمت من عقلي لعقلي هادي
وقبعت في دار الخمول مغالطاً ... نفسي بوصل بثينة ودعاد
ان كان بغداد الرشيد تبهرجت ... فانا الرشيد وهذه بغدادي
فكأنني ملك يتوجه الاسى ... وكأنما الحسرات من اجنادي

وليعذرنا القارئ عن الاكثار من شعر شاعرنا السماوي فقد تعمدنا نشره لأن المنشور منه قليل فاذا كنا نظن على القراء بقليل من ذلك القليل كنا قد ظلمنا الادب فعفواً ايها القارئ الكريم .

حمود الساعدي

مدرسة النجف المقدسة

للعلامة السيد محمد جمال الهاشمي

خشوعاً ومن لك لايخشع ... وانت لشمس الهدى مطلع
تؤم ظلماء اليك العقول ... وترجع رياً متى ترجع
على باب قدسك يجثو الخلود ... ويعتكف الملأ الأرفع
أماط لك العلم سر الحياة ... فأبصرت ماحجب البرقع
وطالعت ماهو خلف القديم ... وما هو في طيه مودع
واخرجت مافي كنوز العصور ... وماضم طلسمها الأمنع
فيا ـ انبياء اتينا ـ غدت ... لمجدك من ضعة تضرع
وذلك افلاطـ يهوي لديك ... سجوداً و - رسطاس ذا يركع
وتلك مدارسها الخالدات ... يحوط بها مجدك الأروع
وهذي مناهجها الخالدات ... يطبقها نهجك المبيع
وأضحت عصارة افكارها ... يفيض بها حامك المترع

بزغت بمحلولكات القرون ... فشع بك الدامس الاسفع
حملت شعار الهدى فانتمى ... بمشروعك النطن اللوذع
ورحت تسوسين دنيا العقول ... فحكمك فيها هو المرجع
درست الشرائع كي تعرفي ... قوانينها ، أيها النفع ؟
فأيدت دين النبي العظيم ... لأن مبادءه اجمع
هو العلم أعطاك عرش الجلال ... له الدهر من هيبة يخضع
فسودي بسلطته واحكمي ... فحكم الفضيلة لايردع
تعاليت عما يقول الخطيب ... وما ينظم الشاعر المبدع
فمعناك فوق مجال الظنون ... فليس لفكر به مطمع

فيا قاطف الزهر من حقلها ... اعد نظراً بالذي تصنع
تنبه ، فهذا مجال الرجال ... به يوضع المرء او يرفع
خذ الزاد والحذر قبل المسير ... فما لمه مرهب مفزع
توكل على الله واصبر اذا ... دهاك به حادث مفجع
وجرد حياتك عن كل ما ... يعارض سيرك او يمنع
وللعلم فليك ماتجتنيه ... لتحضى به يوم لا ينفع

محمد جمال الهاشمي